حين يتمظهر " الأنا " في " الآخر "
في رواية " حمائم الشفق " لجيلالي خلاص

بوسماحة مويسي

جامعة بشار

يجد جيلالي خلاص في ركوبه و تسلقه و مواكبته للنمط الروائي الجديد متنفسا و وسيلة للتخفي وتمرير خطابه الإيديولوجي بعيدا عن تلك النصوص الروائية الملتزمة التي ظلت إلى عهد قريب مفضوحة معلنة مبتذلة ، حيث لجأ إلى نسق لغوي و طريقة سردية أسند فيها البطولة إلى الضمائر مما يصعب على القارئ المبتدئ التفطن إلى خطابها الإيديولوجي ، وبصنيعه هذا يطوي صفحة تلك الكتابات الأيدلوجية التي انتشرت في السبعينيات من القرن الماضي و التي تغنت بشعار الالتزام بقضايا الأمة. و لعل للشرط التاريخي مفعوله و أثره لما جد من تناقض و تطاحن من أفكار و مواقف مغايرة و جدت مكانتها في الساحة الاجتماعية و السياسية للبلد،منذ الثمانينيات من القرن الفارط . أملت تحولات في مجالات متعددة أفرزها ما استجد من معطيات، فشملت من بين ما شملت ميدان الأدب.

و إن عبرت "حمائم الشفق " عن زيف و وهم حقبة من التاريخ و بخاصة بعد الاستقلال،فإنها استطاعت أن تغوص في أعماق أبطالها الكادحين المطحونين من عامة الشعب و من المثقفين النزهاء و النقابيين المخلصين الذين سحقتهم أنانية و جهل

و عنجهية حكامهم بمصادرة حرياتهم و أحلامهم و آمالهم و بخياناتهم و سقوطهم في أحضان الآخر الذي كانوا يحاربونه بالأمس القريب. فلم يعد للاستقلال معنى في ظل الإحباطات المتكررة والتناقضات و الأزمات التي ولدت إنسانا مهزوز الهوية.

إن التجربة الروائية عند جيلالي خلاص اتسمت بالراهنية من خلال إدراكها لمدى الوعي الذي بلغه الشعب ، و قدرتها على مواكبة نمط تفكيره،فكان له قصب السبق في تمرير خطابه الإيديولوجي بسلاسة و قدرة فنية متميزة.

وإذا كانت الرواية هي المجال الأمثل لفضح و كشف زيف الراهن ،فان "حمائم الشفق" تربط هذا الراهن بذاك الماضي ، الذي كان سببا في فقد الإنسان الجزائري الثقة في نفسه وفي حكامه. ولم يكن بد من أن يقدم لنا بطلا نموذجيا في الوطنية و البطولة و الإخلاص و التشبث بالمواقف تمثل في " أنا" التي غطت بظلالها بطولة الآخرين إذ هي المرجع و المثل بل هي الصنم الذي لا يتحطم والأفعون الأسطوري الذي لا يموت أبدا.وحتى لما ينقطع الأمل في الرجال لمواصلة المسيرة فان النساء اللائي أوكلت إليهن مهمة الثورة كلهن كن يتمنين لو

ضاجعهن بوجبل ولو في المنام.و لعل في عريهن و هن يشعلن الثورة التي فشل الرجال في إشعالها إيحاء إلى ما آل إليه المجتمع من خراب ليس في فكره فحسب بل في عرضه و شرفه. إن قارئ رواية "حمائم الشفق" لجيلالي خلاص" يجد نفسه في مواجهة الضمائر العربية بطلة للرواية ،في وحدات يسيطر عليها ضمير من الضمائر وفق الترتيب المعروف لها (الضمائر) والتي من خلالها يتعرض لتاريخ مدينة لزهاء أكثر من خمسة قرون ،عاشت إثرها ثورة تلو ثورة ،عانى ما عانى سكانها من ويلات الاستعمار،ولكنهم لم ييأسوا ، و لم يتوانوا لحظة في الدفاع عن مدينتهم وعرضهم و شرفهم ، حتى أصبحوا لا يتقنون إلا فن القتال.

وفي ثورتهم الأخيرة و هي الأطول التي خاضوها عبر القرون التي خلت، و التي انتصروا فيها على أعتى مستعمر لبلادهم ،اعتقدوا بأنه آن لهم أن يعيشوا في رفاهية و اطمئنان،و أن يركنوا إلى الهناء و العيش الرغيد .

ولكن المصيبة كانت أدهى و أمر ، و الكارثة كانت أعظم لأن الأمر لا يتعلق باستعمار بعينه هذه المرة ، الآخر الذي يتميز بظلمه ، و طغيانه ، الأخر القادم من وراء البحر، الغريب ، بل هو ظلم ذوي القربى ، لأن الذين أولوهم أمرهم ،صنعوا لنفسهم إمبراطوريات للتعجرف و القهر و كبت الحريات ، بل أكثر من ذلك عزلوا كل من سولت له نفسه تذكيرهم بمبادئ الثورة و أهدافها. إنها معاناة شعب بأكمله لم يجد الخير حتى قي بني جلدته بل حتى في أولئك الذين درسوهم الوطنية ، و حملوا السلاح للقضاء على المستعمر.إنها رواية الواقع المر و الحلم المستحيل ، رواية التأكيد و النفي ،رواية الحقيقة و اللاحقيقة، فهي و إن انطلقت من "الآن"–أي الحاضر– على لسان البطل الأول في الرواية و الذي هو الضمير المتكلم المفرد "أنا"العالم لكل ما يجري من حوله فسرعان ما يواجه هذه الحقيقة النفي المطلق فيشوبها الشك فلا نعلم أحلم يعيشه البطل أم هي حقيقة مطلقة؟؟

تتوزع بطولتها على أبطال كثيرين هم بعدد الضمائر العربية ، تمثل شرائح المجتمع وتظهر مساهمة كل فئة منه،و قد نلحظ أن الفضاء الذي تدور فيه الأحداث يصبح هو الأخر بطلا في الرواية، أمر لم تعهده الرواية الجزائرية من قبل. و إذا كان من المعروف أن الضمائر المفردة في الرواية تنوب عن باقي ضمائر التثنية و الجمع ، فان استعمال الضمائر في رواية "حمائم الشفق" بهذا الشكل وتخصيص جزء من الرواية لضمير معين و بالترتيب المعروف لها في اللغة العربية،يدفع القارئ إلى التفكير في البعد الفني لهذه" التقنية"؟

من المعلوم في السرد الروائي استعماله في أغلب الأحيان لضمير الغائب"هو"و"هي" يليه ضمير المتكلم"أنا" ثم ضمير المخاطب "أنت"و"أنت".و هذا لا يعني بتاتا اقتصار السرد الروائي على هذه الضمائر فحسب،فقد عمدت الروايات الأكثر تميزا على تنوع الضمائر هادفة من وراء ذلك إلى عدم سيطرة ضمير معين على السرد ."الضمير الأكثر استئثارا بالسرد هو ال "هو" و ال "هي" يليهما ال"أنا"ثم ال"أنت"،ومن النادر أن يكون السرد بأحد ضمائر الجمع "كالنحن"و" الأنتم "و "الأنتن"خلافا لما نجده أحيانا في السرد المسرحي." [1]

فإذا كان تعدد الضمائر في السرد الروائي من الأهمية بمكان ،كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، بحيث يضفي على العمل الروائي الكثير من الجاذبية سواء بالاستعمال العادي و الواعي لها ،أو بتعمد الفوضى الأسلوبية المنظمة(حسب نظام معين) قصد التخفي،كما هو الشأن في حالة الحروب و الاضطرابات السياسية.غير أنه لا ينبغي أن يصل الاضطراب و التشويش و الخلط الأسلوبي إلى درجة يصبح فيها القارئ صاحب الثقافة المتوسطة عاجزا عن تمييز بعض البنى و الأنساق التعبيرية و السردية عن سواها و نسبتها إلى هذا الضمير أو ذاك.

لعبة الضمائر أم ضمائر اللعبة

لقد عمدت إلى عنونة هذا الجزء بـ(لعبة الضمائر) لأن العمل الروائي ككل هو لعبة فنية الأمر الذي يقره جيلالي خلاص في روايته هذه . فاستعمال الضمائر بهذه الكيفية لا أخاله إلا لعبة فنية حاول من خلالها الكاتب تجريب طريقة أخرى في الكتابة الروائية ، ويبقى السؤال الأهم هل نجح في ذلك ؟ المعروف في لغات مختلفة بأن ضميرا يغني عن ضمير آخر ، وهذا تبعا لسياقات متعددة ، فضمير أنتم المستعمل في سياق يراد منه الاحترام سواء في اللغة العربية أو الفرنسية، هو في الحقيقة يعوض ضمير المخاطب أنت أو أنت، و كذا الأمر بالنسبة لضمير المتكلم" نحن" سواء في سياق الخطاب المتعالي، أو في سياق مخاطبة من هو أقل مرتبة ،فان هذا الضمير يعوض ضمير المتكلم "أنا ". و المعروف أن تعدد الشخوص أو الأصوات إنما الهدف منه إبراز مختلف الرؤى و أنماط التفكير ، الأمر الذي يستدعي توظيفا واعيا لهذه الشخوص و تلك الأصوات ،و إلا فقدت أهميتها و دورها في النسيج الروائي ، وربما أخلت بمعمار الرواية ،ومن هنا فان الدارس لرواية حمائم الشفق يلحظ بأن استعمال بعض الضمائر أو الأصوات كان يمكن الاستغناء عنه ،لأن ضمائر يغني بعضها عن بعض.

مجموعة المتكلمين" أنا، نحن "

تبدأ رواية "حمائم الشفق" ببطولة لضمير المتكلم "أنا" الذي يحكي قصته لقارئ مفترض هادفا وراء ذلك إشراكه، بل وإقحامه في المعمعة التي يعيشها البطل ، ولكن يبدو أنه (البطل) يغفل الكثير من التفاصيل ، و تختلط عنده أحيانا الحقيقة بالحلم ،ويمتزج الشك باليقين ، فلا يدري القارئ أحقيقة يعيشها أم حلم يراوده؟".و فجأة شعرت بوحشة قاتلة. كابوس غيهبي مقيت داهمني على حين غرة ملأ الأفق بظلال أخطبوطية مرعبة.أين أنا؟ ماذا وقع لي ؟ و الجوهر و الأولاد ، أهم نيام قربي أم ؟..لماذا سحبت الجوهر الغطاء عن جسدي تاركة البرد يلدغني حتى النخاع ؟ لم يكن من عادتها أن تغفل.لكم أتوق إلى دفئها الحنون السخي. كلا أنا الآن وحدي ،عرضة للبرد ،الأوجاع ، للعطش(لقد جف حلقي و لكم أتوق إلى جرعة ماء) و الجوع (ما أقصى الألم الذي يهصر مصاريني).وحدي أنا اذن لشد ما يحزنني هذا .لكم تلح علي الذكريات بحرا زاخرا يرعد بأمواجه الصاخبة. 2"

و إذا بضمير المتكلم المفرد ينزاح إلى ضمير الجمع المتكلم :" كنت أرقب رفقة إخوة السلاح معمار المدينة المتراقصة البياض كسراب تلوح به أشعة الشمس ..." [3] و إذا بالأنا و النحن يلتحمان بل ينصهران في ذات واحدة و تصبح القصة قصة الجميع :" أما هؤلاء الأخيرون ، فقد كنت أراهم كما أرى ذاتي ، و كيف لي أن أراهم غير كذلك و نحن مقبلون على آخر هجوم "[4] وقد ينزاح في لحظة ما ضير المتكلم "أنا " إلى ضمير الغائب "هو " " و الحال أن هاجسا أوحى إلي ، بمجرد انحراف سيارتهم عن الطريق العمومي و غوصها بين القصب الأخضر المحيط بالمسلك الترابي الحصوي المؤدي إلى الشاطئ ، المرجاني ، أوحى إلي أن قد " دنت ساعتك يا بوجبل "..."[5] وقد يلحظ القارئ كيف يتم تجسيد شخصية "أنا "في شخصيه " بوجبل" الكنية التي يعرف بها " أنا " . ويتقاطع الراوي مع الكاتب بل وتصبح "أنا" تمثل الراوي و الكاتب في آن واحدة حين تتكشف لنا جزئيات من عناصر حياة جيلالي خلاص الكاتب العصامي الذي ما درس يوما في مدارس عليا و لا في كبريات الجامعات الوطنية أو ألأجنبية "... أما أنا فعمري ما تجاوزت الشهادة الابتدائية ... الظروف... الفقر... الحرب ... و النضال "[6]

و لما كان "نحن" ضمير المتكلم للجمع أبناء الـ "أنا" أي" بوجبل" الخائبين أو ما يطلق عليهم السارد بحطب الثورة و وقودها، فهم امتداد الـ "أنا" دما وعرقا ،و مبادئ.وهم يمثلون شباب الأمة المهمشين ،و طاقتها المعطلة ،اكتنزوا الغضب عبر سنين المعاناة، وأيام القهر فقدوا براءتهم بفعل فاعل، وخُدشت سكينتهم و هدوؤهم حين حرموا من أبسط ألأمور وهو التمتع بمباراة لكرة القدم، والأدهى والأمرّ أن يسجنوا بسبب جرم لم يقترفوه.وسيصبح فضاء السجن موطن تبلور الأفكار الثورية ، ومحك لفهم الحياة، وتنامي الحقد على تلك الطبقة الحاكمة التي خطفت منهم كل شيء. "غير أنه إن كانت أجسادنا قد تهاوت يومها ، فان عقولنا قد ازدادت منذئذ قوة و استنارة الى درجة أن صدقنا المثبت لبراءتنا يومها لم يتزعزع البتة ، و إنما تدعم بدروس جديدة ، لم يكن لحياتنا معنى ،مهما عشنا ، لو لم نتلقها على أيدي أولئك الذين اعتقدوا أنهم قضوا علينا بينما الحقيقة، التي اكتشفناها فيما بعد، بينت لنا أنهم أحيونا، بل أننا لم نكن أحياء قبل أن يدخلونا السجن "[7] و إذا بالحلم في نهاية المطاف يتحقق و إذا بالأعداء أشلاء ."اليوم، نقف في وسط الملعب المعشوشب الأخضر بأحلامنا المحمومة استعدادا للانقضاض على مرمى الخصم. بعد قليل سنطلق سفارة الإنذار، فإذا أرجلنا مضمومة متضامنة تندفع إلى الكرة و ما أن تركلها حتى تنطلق هذه صاروخا معبأ بقوة أحلامنا الفتاكة فإذا الأعداء أشلاء[8] الملاحظ هنا أن قصة الـ"أنا " و الـ "نحن " هي في جوهرها قصة واحدة ،بالرغم من تخصيص جزء كامل لل" نحن "لم يأت بتفاصيل جديدة ، أو برؤية جديدة ، أو فكرة مختلفة عدا بعض التفاصيل الجزئية .

مجموعة المخاطبين "أنتَ ، أنتِ ،أنتما، أنتما ،أنتم ،أنتن"

من المعروف إن الغرض من استعمال ضمير المتكلم هو انتزاع أفكار أو أحاسيس أو عواطف مسكوت عنها، أو كامنة في اللاشعور، أو مخبأة لسبب من الأسباب أو سرد للأخر قصته، فيوضع المتلقي في قلب

العملية التخيلية، فيقحم كطرف في الرواية، ويصبح في وضعية المتعلم، بل المتهم الذي نريد أن ننتزع منه اعترافات وحقائق كما يزعم ميشال بيتور.[9] ف "أنتَ "و"أنت "المخاطبان هما من طينة واحدة بل هما امتداد لكل من الرسام و أبو جبل ، فجميلة لما رأت الرسام لأول مرة اعتقدت أن أباها عاد إلى الحياة، و جميلة هي المرأة و المدينة التي عشقها الرسام حتى الثمالة و مثلها في لوحاته. مع ملاحظة الانتقال من ضمير إلى آخر" ... إلى درجة أنك قلت في دلك اليوم الذي عرفت فيه حبيبك أنه عاد، عاد يحمل هموم المدينة بكل أثقالها و آمالها و خيباتها "[10] و اذا بجميلة تمثل المدينة تماما كما كانت الجوهر بالنسبة لل "أنا " وهو ما يقر به الرسام "... و إنما هي صورة المدينة التي عشقتها عيناك وولعنا بها لا يمكن أن تمثل جميلة سوى جزء منه قد يكون يسيرا"[11] وهي قصة الـ "أنا "أو بالأحرى هي الوجه الأخر لقصة بوجبل و الجوهر بل امتداد لها. "الجوهر حبي الكبير الذي أنساني كل النساء السابقات في حياتي، الجوهر ذاتها حين أتخيلها لا أتخيلها سوى مدينة ، و لا مدينة إلا أنت أيتها الكتلة البيضاء المستحلفة عند قدم الجبل الشاهق."[12] أما المخاطبان" أنتما، أنتما " فان الأمر يتعلق بقصة الجوهر و بوجبل و قصة جميلة والرسام في عشقهما السرمدي لكليهما و للمدينة، و مقاومتهما لكل أشكال الضيم، و أنواع الاستبداد . ولعل هاجس مداهمة الجلاوزة للبيت هو اشتراك في القلق على مصيرهما و مصير مدينتهما." لا نوم إذن ، خاصة و أنتما تنتظران مجيئهم هم جلاوزة المشيخة "[13]

و ينتقل في القصة من استخدام الضمائر المفردة إلى ضمائر التثنية ، ثم إلى ضمائر الجمع هادفا من وراء ذلك إلى مفهوم الشمولية و التعميم و التشارك ، بل الامتداد و التوسع."من غابر الأزمنة ، و أنتم تتعرضون للاعتداءات السافرة ، تلك التي عصفت بأبنائكم و نسائكم و متاعكم ، و اذ نجا بعضكم من ويلاتها فليس إلا لمواصلة التحدي العنيف المسلح بصبر نفوس لا تموت إلا لتحيا من خلال نفوس أخرى " [14]و المخاطبون هم أبناء المدينة عبر الأزمنة المتعاقبة ،من سلالة أولئك المقاتلين بامتياز ، و عشاق المدينة ، و حراسها الأوفياء." لا ريح إلا أنتم و قد ركبكم جنون الاستماتة ذودا عن المدينة المحبوبة إذ لم يكن في الدنيا شيء يعادل ولعكم و بعشقها كما لم يكن في المعمورة جيش قادر على افتكاكها من أحضانكم أنتم الفحول الذين أسرهم خليجها بين فكيها إلى الأبد مسلسلا أفئدتكم بأصفاد العشق الولهان و ملثما رؤوسكم بدموية النمور إذا أوقعت بين مخالبها صيادا مغرورا سولت له نفسه الغوص في كثافة غابة كان يجهل مدى وحشية أخطارها "[15] و انتم (ضمير الجمع للمخاطب) يشتركون فيه مع الأبطال الآخرين (الضمائر الأخرى)

في ثورتهم ليس على الأعداء فحسب بل حتى على فئة من أبناء جلدتهم ، شيوخ المدينة الجدد الذين تنكروا لمبادئ الثورة و عاثوا فيها فسادا." أنتم ((الرعية)) تذكرون جميع الويلات التي أمطرت مدينتكم بردا ناريا حارقة حدائقها و غاباتها و مجففة فواراتها وعيونها و مجدبة سفح جبلها المعطاء بملح بحار الشمال القحطية تلك التي صممتم قسما بدمائكم أن تقفوا سدا منيعا في وجه أمواجها المندفعة بلا حياء لنهب خيراتكم واغتصاب بناتكم بمفاتيح سلمها

لهم شيوخ المدينة الجدد بعد أن غافلوكم ليلة اضطجعتم في أسرة نسائكم لمبادلتهن الحب بينما الجلاوزة ينفذون مداهمتهم الأخرى أي خطف رسام المدينة و تجنين رفيقته أما المخاطبات " انتن " فهن خلاص المدينة بعد أن فشل رجالها،بل انصاعوا إلى شيخ المدينة و جلاوزته ،و ركنوا في يأس إلى السكوت و التخاذل، ولا غرابة في ذلك بعد أن بشر الراوي في بداية الرواية على لسان ضمير المتكلم " أنا " الممثل للبطل بوجبل بعظمة النساء وقدرتهن على المقاومة و الثورة ،إلا أن ثورتهن غريبة بحق ، أنها ثورة الأرحام في مواجهة محاولة بذر العقم والتقليل من ورثة التحدي و المقاومة. " كذا نشأ تصميمكمن على اشعالها ((ثورة أرحام)) لن يوقفها المطبلون لحملات تنظيم النسل كما لم تكن صبيحة بقر البطون لسحل أجنتها سوى الشرارة الأولى التي طالما كبتنها ململمات لحطب تذكيتها على مدى عصور القهر و الحرمان ...."[16]

مجموعة الغائبين (هو ،هي ، هما ، هم ،هن)

لقد ألفنا استعمال ضمير الغائب بكثافة في الرواية التقليدية ، باعتبار أن روائي يتحدث عن الآخر و أن ما يقدمه لنا هو مجرد تخييل لا علاقة له لا بالواقع و لا بالمؤلف ، فحتى الروايات التقليدية التي لجأت إلى ضمير المتكلم ،فان مؤلفيها ما فتئوا يؤكدون بأن ضمير المتكلم المستعمل لا علاقة له بهم.و من ثمة فان تنصل المؤلف مما ورد في الرواية هو الخوف من ردة فعل المتلقي و بالتالي التستر عن حقيقته التي لا يعبر عنها إلا من خلال شخوص من الورق.

والمعروف أنه كل ما كان هناك سرد إلا و كان حضور للضمائر الثلاثة ، اثنان منهما حقيقيان ، المؤلف الذي يقابله ضمير المتكلم "أنا "والمتلقي الذي يقابله الضمير المخاطب"أنت"، أما المتخيل والذي نحكي قصته هو ما يقابل الضمير"هو".والمتتبع لاستعمال ضمائر الغائبين في رواية "حمائم الشفق" لجيلالي خلاص سيقف على أنها وردت في روايته بشكل مخالف تماما عن ما كان المراد من استعمالها في الرواية التقليدية. فالضمير "هو" الذي يمثل الأبن الوحيد للرسام و جميلة و الامتداد الطبيعي لهما، ورث من جدته ملفا في صندوق من الحديد يحمل مخططات للمدينة كما كانت تحلم بها أمه ، المهندسة المعمارية ،و جده هو أبو جبل البطل و المثل الأعلى لأهل المدينة و ثوارها ، فالضمير هو لا يعني هنا الآخر بقدر ما يعني "أنا" بوجبل الجد ،في حمله لأفكاره ومواصلة السير على دربه في مقاومة المستعمرين الجدد من أبناء جلدته ، و هو يمثل باقي الضمائر ومن هنا يتضح ذالكم الدوران و الانزياح بين مختلف الضمائر بطلة رواية حمائم الشفق . و الأمر ذاته يمكن ملاحظته من خلال توظيف الضمير " هي "الممثل للمدينة والمرأة المعشوقة سواء الجوهر و جميلة ،فتغيير الأسماء لا يعني بتاتا هنا ميلاد شخصية جديدة بقدر ما يعني بعث للشخصية في ثوب جديد يتلاءم و المواقف الجديدة .فحين يتحدث بوجبل عن حبه للجوهر "هي" فانه لا يكاد يجد مسافة بين حبه لها وحبه للمدينة فالجوهر هي المدينة و المدينة هي الجوهر .و هكذا نلحظ أيضا انزياح الضمائر و دورانها في استعماله لضمائر الغائبين الآخرين فالضمير "هما " الذي خص

ب كل من "بوجبل " و"الرسام تارة لتطابق الأفكار و الرؤى و الأحاسيس فقد أحب الأول الجوهر و قد أحب الثاني جميلة التي لم تكن إلا امتدادا لها ، هو يقر بأن بوجبل والرسام شخصية واحدة : "و لو التقيا اليوم بعد اقتحام بيتهما بنفس الطريقة و في ذات الظروف ، لتضاما رجلا واحدا ، سيما وقد امتزجت روحهما فكرا و حياتا و إلا كيف يمكن للثاني أن لا يكون الأول و قد حب ابنته جميلة ؟ "ترى أهي صدفة الحياة أم منطق تطابق الأفكار"[17]

و يضيف :" هكذا إذن كانت المرأتان الخيطين السحريين اللذين ربطا المصير وبما أن هذا الأخير لا يكون إلا واحدا فقد كانت جميلة هي أباها مثلما كان هذا الأخير صورة لصهره المقبل و إن كان لم يره سوى في مقلتي الجوهر..."[18] وهكذا يتضح أن استعمال الضمير ههنا لا يعني بتاتا وجهة نظر أخرى بقدر ما يعني الانزياح و الدوران ، و هو ما يتجلى بوضوح في الفقرة التالية: "ولعت المرأتان بالرجلين كما ولع هذان الأخيران بهما ولعا شديدا حتى انصهر أربعتهم في رجل و امرأة لا غير، وككل الثوار الأسخياء البررة، كانوا يعشقون بعضهم بعطاء غير محدود"[19] أما الضمير هم الذي خصّ به الآخر أي الغزاة والحكام الجدد للمدينة ومشيختها وخلصيها من الاستعمار بل مستعمريها الجدد ، فسرعان ما تنزلق الحكاية إلى حكاية الآخر حكاية بوجبل الذي رفض طريقة الحكم و فضل العيش البسيط وسط أبناء الشعب معلنا حربا شعواء ضد من خانوا العهد والضمير :" ...غير أن الارتياب ما فتئ أن داخلهم حين تغاضى عن قبول منحة الحرب و عاد إلى مزاولة نشاطه السابق...و حين عججت رياح التمرد الحضري الأول بعد الجلاء ، كشفت تحرياتهم أن الرجل كان وراء الأفكار التي عصفت بعقول الرعية فثاروا يطالبون بحقهم في الحياة العادلة "[20] الضمير " هم " ألفيناه يعود هنا أيضا إلى أنواع الغزاة الذين توالوا عقب الحقب الزمنية ، كما يعود إلى المشايخ و يعود أيضا على سكانها البسطاء الذين واجهوا المشايخ ، وهكذا يبدو انزياح الضمير و دورانه بينا هنا.:"غزاة كثيرون رسوا هاهنا "[21] "مرة أخرى ، كانت الخدعة في الميعاد ، فكأكباش متناطحة على شاة هرمة ، كان "المشايخ " قد أصيبوا بحمى التناحرات الأحشائية للاستلاء على عرش المدينة المرمد لطول ما تأكل بلهيب حرب ضروس دامت خمسمائة سنة كاملة.""[22]

أما الجزء الأخير فقد خصصه جيلالي خلاص للضمير "هن" وهنا أيضا انزاح الضمير من الحديث عن الأمهات إلى الحديث عن بناتهن إلى الحديث عن جميلة "هي " و زوجها الرسام و في هذا الجزء أيضا تمتزج الحقيقة بالخيال بل يتقطعا إلى درجة لم نعد نفصل بينهما :

" ففي لوحاته كن و كانوا مظاهرة صاخبة تندلع من الأحياء السفلى حيث يتثعبن الفقر المدقع لتصعد الشوارع الكبرى المزدحمة بواجهات المحلات الثرية كاسحة (المظاهرة) الأحياء العليا المتسحلفة للقصور والفيلات بين بساتين خضراء تفوح ليمونا وبرتقالا وتفاحا وخوخا لم يكن ثمره ينفلت للأسفل أبدا "[23]" تلك كانت لوحة "الفيضان المعطاء" و أولئك الفتيات المتظاهرات،كن هنّ بالتأكيد ..."[24] هكذا إذن تمتزج الحقيقة بالخيال و يتقاطع الحلم

والأمل ويموت اليأس إلى الأبد بثورة قوامها النساء ليبيّن للرجال بأنّه في مقدورهن تجاوزهم حين يتخاذلون أو أو ييأسوا أو تموت عندهم عزيمة المقاومة و جمرة الثورة.

الهوامش

[1] صلاح صالح سرد الآخر المكز الثقافي اتلعبي الدار البيضاء المغرب ط1 2003 ص63

[2] الرواية ص 13-14

[3] المصدر نفسه ص 14

[4] المصدر نفسه ص14

[5] الرواية ص 10

[6] الرواية ص 19

[7] الرواية ص 95

[8] الرواية ص 102

[9] يراجع: BOTTOR MICHEL Essais sur le roman

[10] الرواية ص 45

[11] الرواية ص 29

[12] الرواية ص 18

[13] الرواية ص 116

[14] الرواية ص 153

[15] الرواية ص 156

[16] الرواية ص 176

[17] الرواية ص 126

[18] الرواية الصفحة نفسها

[19] الرواية ص 142

[20] الرواية ص 183

[21] الرواية ص 187

[22] الرواية ص 191

[23] الرواية ص 202

[24] الرواية ص 204

المصدر:

جيلالي خلاص حمائم الشفق "رواية » المؤسسة الوطنية للكتاب 1986

المراجع :

صلاح صالح سرد الأنا و الآخر عبر اللغة السردية الدار البيضاء (المغرب) ط 1 المركز الثقافي العربي 2003

عبد المالك مرتاض في نظرية الرواية ، بحث في تقنيات السرد الكوبت المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الأدب ديسمبر 1998

فيصل دراج نظرية الرواية و الرواية العربية الدار البيضاء المغرب المركز الثقافي العربي 1999

BUTOR Michel essais sur le roman (livre) saint-amand TEL GALLIMARD ? 1992

RICARDOU Jean LE NOUVEAU ROMAN (livre) PARIS ? SEUIL 1990

MAURIAC François LE ROMANCIER ET SES PERSONNAGES (livre) PARIS BUCHET/CHASTEL ? 1988